الحسين بن منصور الحلاج بين أنصاره وخصومه

د. محمد ألف سيسه
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية
جامعة الشيخ أنتا جوب بداكار
السنغال

الملخص

يتناول هذا البحث شخصية الحسين بن منصور الحلاج، أحد أكثر أعلام التصوف الإسلامي إثارة للجدل، وما أثارته شطحاته وأقواله الرمزية، مثل قوله: «أنا الحق»، من انقسام بين العلماء حول حقيقة تجربته الصوفية ومصيره. ويعتمد البحث المنهج التحليلي، وينقسم إلى فصلين: يعرض الفصل الأول سيرة الحلاج، من نشأته وتلقيه التصوف على شيوخه، إلى رحلاته ومنهجه الصوفي القائم على الحب الإلهي والفناء، ثم محاكمته وما انتهت إليه من تعذيب وصلب وإحراق. ويتناول الفصل الثاني موقف العلماء منه بين أنصار عدّوه وليا عارفا فانيا في محبة الله، وأوّلوا أقواله على معان باطنة، وخصوم رأوا فيه زنديقا قال بالحلول والاتحاد وخالف عقيدة التوحيد، ثم يزن تجربته في ميزان التصوف الشرعي. ويخلص البحث إلى أن الحلاج يمثل نقطة اصطدام بين ظاهر الشريعة وعمق التجربة الصوفية، وأن إفشاءه ما كان ينبغي كتمانه كان سببا رئيسا في محنته، وأن الأولى كان الاقتداء بمنهج الإمام الجنيد في ضبط الأحوال بالشرع، مع التنبيه إلى أن الطريقة التي قُتل بها تجاوزت حدود العدالة إلى الانتقام.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الحلاج، الحب الإلهي، الفناء، الحلول والاتحاد، وحدة الوجود.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Résumé: Né et mort à Baghdâd, al-Ḥusayn Ibn Manṣûr al-Ḥallâj fut un mystique persan très controversé. Attiré par une vie ascétique, il fréquenta d'éminents soufis dont, entre autres, Sahl at-Tustarî et Abû Qâsim al-Junayd. Pour avoir été suspecté par les Sunnites pour ses idées mystiques et ses déclarations jugées sacrilèges, al-Ḥallâj fut arrêté une première fois en 909. Il parvint tout de même à s'évader, et se cacha pendant trois ans dans le Khuziztân. Mais bientôt la police califale le retrouva. Vénéré par ses partisans qui voient en lui un symbole de l'amour divinement mystique (al-ḥubb al-ilâhî), matérialisé par son anéantissement en Dieu (al-fanâ') mais accusé par les juristes orthodoxes de vouloir saper les fondements de la Religion par une interprétation allégorique des Textes, les conséquences et les intrigues se ligueront contre lui, et il fut mis au pilori. Il resta emprisonné pendant huit ans à Baghdâd. Mais en 922, un second procès, mené plus rudement, et qui dura sept mois, se termina par la sentence capitale. Al-Ḥallâj fut sévèrement torturé et crucifié. Son corps fut brûlé et ses cendres jetées dans le Tigre.

Mots-clés : soufisme – Al-Ḥallāj – l'amour divin – anéantissement – l'incarnation – l'union – le monisme existentiel

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المقدمة: إن الحسين بن منصور الحلاج من أبرز أعلام التصوف في تاريخ الإسلام. وقد أثار حوله الكثير من الجدل سواء في حياته أو بعد وفاته. اشتهر بشطحات وتصريحات رمزية مثل "أنا الحقّ" والذي رأى فيه كثير من العلماء أنّه ادّعى الألوهية، فألقي في السجن مدة طويلة ثم صُلب بعد أن ضُرب وقُطعت يداه ورجلاه ثم قُطع رأسه وأحرقت جثته بفتوى من القضاة الذين حاكموه في ذلك الوقت. لقد ترك الحلاج الكثير من الكتب والرسائل أهمها ديوان شعره الذي ضمن موضوعات مختلفة تدور حول (الألوهية) و(التوحيد) وحول العلاقة بين الإنسان والله، وإن هذه العلاقة الوجودية تنبثق من الحب أو العشق على حد تعبيره. ولقد اتفق كبار الصوفية المحققين على أن الشريعة هي الإطار الذي تندرج فيه التجربة الصوفية وأن مصداق تلك التجربة لا يُقاس إلا بما ورد في القرآن والسنة، ولكن الحلاج شق طريقا جديدا واختلفت تجربته الصوفية عن تلك التي كان عليها أهل عصره، مما أدّى إلى اعتقاله وتعذيبه وأخيرا إلى عقوبة الإعدام. وعلى هذا انقسم الناس، بل العلماء على أمره، بين مؤيد لشأنه وبين من يرى أنه قتل على الكفر.

اعتمادا على المنهج التحليلي، سنقسم البحث إلى فصلين، عنوانهما: سيرة الحسين بن منصور الحلاج وموقف العلماء من منهجه الصوفي. فالفصل الأول يتناول حياة الحلاج، من نشأته ومنهجه الصوفي الذي انفرد فيه ثم محاكماته التي انتهت إلى إعدامه. وأما الفصل الثاني فيتمحور حول اختلاف العلماء في سيرة الحلاج السلوكية، بين أنصاره وخصومه ثم نتطرّق إلى تحليل نتائج ذلك التفاوت الكبير في ميزان التصوف الشرعيّ.

1- سيرة الحسين بن منصور الحلاج

الحسين بن منصور الحلاج هو الصوفي الأكثر إثارة للجدل والأعمق أثرا في التاريخ الإسلامي. فكان ويظلّ نموذجا لافتا في تاريخ الإنسانية يقف أمامه الكثيرون من الباحثين عن معنى حقيقة التصوف وخاصة الحبّ الإلهي الذي تميّز به.

1-1 الحلاج نشأته وحياته

الحسين بن منصور الحلاج يكنى أبا المغيث –وقيل أبا عبد الله–. وكان جده مجوسيا اسمه محمى من أهل بيضاء فارس. عاش في "واسط" حيث نسي بعض لغته الفارسية وقرأ القرآن حتى سن الثانية عشرة، ثم قرأ على التستري مدّة، فتعلم التصوف منه على عجل ثم تركه وهو في العشرين من عمره قاصدا البصرة، حيث تلقى التصوف من عمرو المكي. تزوج بأم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع البصري حتى آخر حياته[1]. وذكر مصطفى كامل أنه قد جرى نزاع بين حمِيه أبي يعقوب وشيخه عمرو المكي على زعامة الصوفية في البصرة، فاعتزل الحلاج في جامع البصرة يتعبد ويتصوف ويُقرئ[2].

ولمّا ضاق صدره بهذه الخصومة، قصد إلى الجنيد البغدادي يستشيره، فأمره بالسكوت والمراعاة[3]. وحينما استمرّ الأمر ترك الحلاج البصرة وولّى وجهه شطر مكة لأداء فريضة الحج، وجاور هناك سنة كاملة أنفقها في ممارسة أشقّ الرياضات الصوفية بتعريض جسده لأشدّ ألوان العذاب الجسماني، من اقتصار على الخبز والماء وتعرض لأشعة الشمس اللافحة في جبال مكة

[1] انظر، شرف، محمد ياسر، حركة التصوف الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص. 163.
[2] انظر، الشبيّ، كامل مصطفى، شرح ديوان الحلاج، بغداد، 2007، ص. 24
[3] المرجع نفسه.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الجرداء[1]. وكان كل ذلك الوقت يلازم الصوم والصمت بشكل دائم لتصفية قلبه وتربية روحه خاصة لله وحده[2]. ولم يكن يأكل إلا بعض قرص ويشرب قليلا من الماء معه وقت الفطور مدة سنة كاملة، وكان يجلس على صخرة في شدة الحر في جبل أبي قبيس[3]

فعلا، لقد عاش الحلاج حياة شديدة الزهد والفناء. صار واعظا متجولا تقريبا على مدى خمس سنوات. جاب خراسان وفارس ثم عاد إلى بغداد لمدة عام قبل أن يغادر مجددا في سنة 905 إلى الهند عن طريق البحر. تابع رحلته حتى حدود تركستان وصولا إلى تخوم الصين لنشر دعوته[4]. أكّد النوتي Anawati أن الحلاج هو أول من قام بدعوة الهندوس والأتراك إلى الإسلام، إلا أن دعوته أحدثت "أزمة ضمير" داخل الأمة الإسلامية، وذلك عندما أعلن على الملأ –تحت تأثير سكر روحي– إمكان الاتحاد العشقي مع الله أو تصريحه المشهور: "أنا الحق". فصرخ بعض الفقهاء، المتمسكين بحرفية الشريعة بالتجديف والكفر[5].

وفي سنة 909، تم اعتقاله أول مرة، ففرّ من السجن واختفى لمدة ثلاث سنوات في خوزستان، لكن سرعان ما عثرت عليه شرطة الخلافة. ومع مرور الزمن، نِيطت في عنقه تهمة أخرى، وهي أن التكاليف الشرعية يمكن تأويلها بشكل رمزيّ، فحُبس مرة أخرى في بغداد ثماني سنوات. وفي سنة 922، عقدت له محاكمة دامت سبعة أشهر وانتهت بالحكم عليه بالإعدام. وذلك لأن كثيرا من العلماء وخاصة الفقهاء يرون أن الحسين بن منصور الحلاج وأمثاله قد بالغوا في تعبيرهم عن الحب الإلهي الذي هو غاية كل صوفي، فاتُّهموا بإمكان تجسيم الخالق وحلوله في جسم إنسان، وهذا أمر بعيد عن المفهوم الإسلامي النقيّ[6].

1–2 منهج الحلاج الصوفي

اتفق كبار الصوفية على أن الطريقة إلى التزكية الروحية طريقة وعرة شائكة تمتزج فيها البروق الخادعة بالأنوار الهادية والخواطر المضلة بالإلهامات المشرقة وفيها الاستدراج الخفي والامتحان الباني، وفيها العوائق النفسية، والتيه القلبي، والخداع الذوقيّ[7]، ولهذا اتفق الصوفية جميعا على أن طلب الشيخ ضرورة في الطريق لا غنى عنه للسالك المريد، ولكن هذا الشرط لا يتفق مع طبيعة الحلاج فاستقل بنفسه. فاصطبغ منهجه بالفناء والاتحاد على أرجح الآراء.

ففي المبحث السادس من الفصل الرابع في كتابه "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر" بيّن الشيخ عبد الوهاب الشعراني أن الله سبحانه وتعالى لم يحدث له بابتداعه العالم في ذاته حادث وأنه لا حلول ولا اتحاد[8] وزاد أن هذه المسألة أشاعها الملحدون على الشيخ محيي الدين ثم يجلي عرائس كلامه ليبيّن براءة الشيخ من مثل ذلك: "اعلم أن الله تعالى واحد بإجماع ومقام الواحد

---

[1] المرجع نفسه.

[2] انظر، حلمي، الحلول في شعر الصوفي الحسين بن منصور الحلاج، الجامعة الإسلامية الحكومية مولانا مالك إبراهيم مالانج، 2009، ص. 40–41.

[3] انظر، ابن كثير، الحافظ، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت–لبنان، ج11، 1991، ص. 132.

[4] Cf. Anawati, G et Gardet, Louis, Mystique musulmane: Aspects et Tendances, Expériences et Techniques, Paris, 1976, p. 36.

[5] Ibid., p 45.

[6] انظر، الشكعة، مصطفى، مطالعات إسلامية في العقيدة والفكر، المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، 1977، ص. 161.

[7] انظر، سرور، طه عبد الباقي، الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1961، ص. 48.

[8] انظر، الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، لات، ص. 115

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو في شيء أو يتحد بشيء[1]. ففي الآية: فاعلم أنه لا إله إلا الله" فسّر ابن العربي الحاتمي أن ما أعطاه الله الإنسان من العقل الكامل بعد جِدّه واجتهاده الممكن منه فلم يصل إلى المعرفة به سبحانه إلا بالعجز عن معرفته لأنه طلب أن يعرفه كما يطلب معرفة الأشياء كلها من جهة الحقيقة التي هي المعلومات عليها، فلما عرف أنه ثمّ موجودا ليس له مثل ولا يتصوّر في الذهن ولا يدرك، فكيف يضبطه بالعقل؟ هذا ما لا يجوز مع ثبوت العلم بوجوده. فنحن نعلم أنه موجود واحد في ألوهيته[2].

وإذا تأمّلنا كلام الحاتمي هذا نتفرّس فيه ملامحَ من علم التوحيد لأنه يثبت أن الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لا يقبل التعدد والتكثر وأن أحديّته لا تُكيّف ولا تُتصوّر. وهو غني عن كل ما سواه وكل ما سواه محتاج إليه، لم يحل في شيء ولا ينحلّ فيه شيء، وليس له مشابه ولا مماثل ولا مشاكل ولا ند. وعلى هذا افتتح أحمد الرفاعي كتابه: "العقيدة الحقة" بهذا العنوان: "تنبيه المتهوّر الغبيّ في تبرئة ابن عربيّ" معلنا على جبين التاريخ على مدى عمقه وعرفانه بعلم التوحيد وليكون ردا حاسما وصاعقة حارقة لمن دس عليه الأباطيل الملفقة والكلمات المليئة بالحلول والاتحاد والزندقة. وها هي الجملة التي استدل عليها الرفاعي: "لا موجود بذاته إلا الله"[3].

تلك الأقوال (الاتحاد والحلول) وما شاكلهما تصادم -في رأيه- عقيدة التوحيد وتخالف القرآن. فهي كفر بواح صريح لا يقبل التأويل إطلاقا، ويفهم بأن هذه الكائنات بما فيها من جمادات وحيوانات وإنس وجن هي عين ذات الله وقد حلّ فيها والعياذ بالله، وهل يتكثر ويتحول ويتبدل ويتطور إلا المخلوق الحادث؟ وكيف تُطلق على الله هذه الأوصاف المحدثة المخلوقة وقد قال جلّ شأنه: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"؟

ومن ناحية أخرى نُسب إلى الحلاج هذا القول العظيم: "أنا الحق". وقد فسّره البعض على أنه دعوة إلى الألوهية وفسّره آخرون على أنه دعوة الخالق عبر كلام الحلاج. وفيما أورد الشعراني لا يجوز لعارف أن يقول أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا العارف من هذا القول حاشاه إنما يقول أنا العبد الذليل في المسير والمقبل. فإن الرب لا يجتمع مع عبده في مرتبة واحدة أبدا[4].

1-3 محاكمة الحلاج وإعدامه

بعد عودة الحلاج من مكة، بدا للناس في صورة شيخ واثق في نفسه إلى حد الإفراط، وحمله طموحه على أن يشطح في عباراته ويبالغ في مواجيده إلى أن فقد شيخه عمرو بن عثمان المكي ومستشاره الجنيد[5]. وكان عليه بعد هذا أن يعتمد على نفسه

---

[1] نفس المرجع، ص. 116.

[2] انظر، الحاتمي، محيي الدين محمد بن علي، الفتوحات المكية، م1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، لات، ص. 145.

[3] انظر، الرفاعي، أحمد عبد الله، العقيدة الحقة في الرد على أهل الحلول والوحدة المطلقة وعلى من رمى الطائفة الصوفية بالكفر والزندقة، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، 1983، ص. 17.

[4] انظر، الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، اليواقيت والجواهر، مرجع سابق، ص. 116.

[5] انظر، الشيبيّ، كامل مصطفى، مرجع سابق، ص. 25-26.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فقط. أثبتت بعض الروايات أن الحسين الحلاج بعد العودة من حجّه الثالث أقام في بيته كعبة مصغرة، وفي الليل كان يصلي عند القبور خاصة قبر ابن حنبل، وفي النهار يظل يلقى على قارعة الطريق في العاصمة بالأقوال الغريبة[1].

ومن بين التهم التي وُجّهت إليه وسبّبت قتله كُتُبٌ عُثر عليها لدى أتباعه وفيها: يا ذات اللذات ومنتهى غاية الشهوات نشهد أنك المتصور في كل زمان بصورة وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ونحن نستجير إليك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب. وقيل بأنه استمال ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ومن حرمه حتى خاف الخليفة وهو جعفر المقتدر بالله معرة فتنته فحبسه واستفتى الفقهاء في دمه[2] كما سنراه في السطور الآتية

يقول عبد الباقي سرور: إن الحلاج بات الليلة الأولى من ليالي عذابه على صورة لم تُعرف لغيره في التاريخ. ولما أُتي بالحسين بن منصور ليُصلب، تقدم الجلاد مشهرا سيفه، ومن حوله حملة الرماح والدروع، فقطع يده اليمنى، ثم يده اليسرى، ولم يجزع الحلاج ولم يتأوه، ولم تفارق الابتسامة شفتيه، ولم يفتر لسانه عن ذكر الله ومناجاته[3]. قام الحراس فشدوا وثاقه إلى آلة الصلب وأخذوا يتفننون في إيلامه وعذابه بألسنتهم وسياطهم[4]. بات تلك الليلة مقيدا مصلوبا مقطوع اليدين، تنزف جراحه دما. وبات جمهور البغداديين حوله على الضفة الغربية لدجلة يرقب المأساة ويشهد الفاجعة، ويتتبع بعواطف متضاربة، مشاهد مسرحية حية دامية[5]. يقول أحمد الشرنوبي: لما قُطعت يدا الحلاج، أنشأ يقول:

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها إلا لعلمي بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة لعل مسقمها يوما يداويها[6]

ولمّا جاء صباح اليوم الثاني، بدأ العذاب من جديد، فقطعت رجله اليمنى، ثم اليسرى، ومع قطرات الدم. يقول ابن الأثير: ضرب ألف سوط ثم قطعت يداه ورجلاه وهو في ذلك كله ساكت ما نطق بكلمة، ولم يتغير لونه، ويقال إنه جعل يقول مع كل سوط: أحد أحد[7]. ومما قال في ذلك الموقف الفظيع: "إلهي أصبحت في دار الرغائب، انظر إلى العجائب، إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك، فكيف لا تتودد إلى من يؤذى فيك[8]"، ثم أنشد:

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
إن عندي محو ذاتي من أجلّ المكرمات
وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات

[1] انظر، حلمي، الحلول في شعر الصوفي الحسين بن منصور الحلاج، مرجع سابق، ص. 42.
[2] انظر، البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1982، ص. 248.
[3] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 133.
[4] نفس المرجع، ص. 135.
[5] المرجع نفسه.
[6] انظر، الشرنوبي، أحمد عرب، تائية السلوك إلى ملك الملوك، المكتبة العصرية، بيروت، 2004م، ص. 77.
[7] انظر، الحافظ، ابن كثير، مرجع سابق، ص. 142.
[8] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 137.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فاقتلوني واحرقوني بعظامي الفانيات
ثم مروا برفاتي في القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبي في طوايا الباقيات[1]

علما بأنه لم ينج من الموت إن شاءه الله، فقال أيضا: هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي، تعصبا لدينك وتقربا إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي، لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتُليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد[2]! ولا يخفى على أحد أن هذا المصير مصير فاجع، والسؤال الذي ينبغي أن يؤرق فكر كل واحد قد يكون: ما الذي حمل الحلاج إلى أن عرّض نفسه لذلك؟ نعم، فهو مصير مأساوي، ولكن فكأنه يعتبره قدرا ليس له إلا الخضوع والتسليم إليه كما ورد في بيتيه هذين:

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال، أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتلّ بالماء[3].

بقلب مليء بالشجن والتفجع كتب طه سرور أن في هذه المأساة الفظيعة سرّا سياسيّا لأن الحلاج أعجز الخلافة العباسية التي أحدثت أثرا خالدا في التاريخ، حتى التهم البغيضة الغليظة التي قذفوا بها الحلاج يوم المحاكمة أخذت تتساقط سطرا فسطرا...فلم تكن الخلافة العباسية لتصب كل هذا الهول الفاجر على الحلاج، لشطحه الصوفي، أو لمروقه الإلحادي، أو لقوله: "أنا الحق" كما حاولت أن تكره الشهود، وأن تكره القضاء وأن تكره التاريخ على هذا البهتان والتزوير، بل صبت هذا القول الغليظ الفجر دفاعا عن نفسها، وعن وجودها[4]. فرأيُ طه سرور هذا يشير إلى أن الحلاج لو انضمّ إلى السلطة السياسية العباسية لما حدث له ما حدث من تعذيب وصلب. لذا اعتبر القتل مؤامرة رتّبها الخليفة العباسي ووزيره حامد. وها هو السؤال الذي يراوده في ذهنه: ما بالهم قد تركوا الصوفية الآخرين كالجنيد وأبي يزيد البسطامي وذي النون المصري، من غير قتل، فهي مسألة سياسية بحتة اتّخذت شكلا دينيّا، ثم أضاف: كم من صوفية ادعوا وحدة الوجود، فلم يُلفت إليهم وتُركوا وشأنهم[5].

ولا أحد يشك أن ما لقي الحلاج من العذاب لم تشهد الدنيا مثيلا له من قبل، إلا أن الجنيد الذي عدّه من جملة الصوفية الذين يجب عليهم تنفيذ نفس الحكم المتّخذ للحلاج كان بعيدا عن الشطحات والتيارات الفكرية المعقّدة. كان – كما أكّده ابن تيمية– من الصوفية المستقيمين السالكين كجمهور مشايخ السلف[6]. فمنهج الجنيد الصوفي يسعى إلى نبذ الإغراق والتحدث

[1] انظر، الشبيّ، كامل مصطفى، مرجع سابق، ص. 204.
[2] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 132.
[3] انظر، الشبيّ، كامل مصطفى، مرجع سابق، ص. 163.
[4] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 148.
[5] نفس المرجع، ص. 150.
[6] انظر، ابن تيمية، أحمد، فتاوى ابن تيمية، ج10، مكتبة المعارف، الرباط–المغرب، لات، ص. 516.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

في الحقائق التي لا تدركها العقول، لذا وقف ضد الفلسفات الباطنية وحاول أن يحافظ على التصوف نقيا من تأثير أفكار وفلسفات غريبة عن الإسلام، ورفض الانحراف بالتصوف نحو هذه المزالق الخطيرة[1].

قتل الحلاج ببغداد بباب الطاق، يوم الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة، سنة تسع وثلاثمائة[2].

2- موقف العلماء من الحلاج في الحب الإلهي

إن الحب كان -في القرن الثالث للهجرة- من أهم التيارات الصوفية، حيث كان الدافع الأساسي الذي يجعل السالك يبتغي من كل عمل الوصول إلى نيل رضى الله المحبوب، الذي لا رغبة وراء نيل وصاله واستحسانه إلا التمتع بطلعته البهية[3]. فاتخذت دعوة الحب المطلق هذه اتجاها جديدا بعيدا عن الخوف والرغبة والمكافأة. وكان ذو النون المصري يعتبر أول من استعمل بعض عبارات غريبة على مسمع العاديّين مثل: الكأس والشراب ومن العبارات المستعملة في ذلك الوقت: الكأس والشراب[4]. ثم تطور الفكر الصوفي واتخذ اتجاها آخر، حيث قام بعض رجاله بإيجاد علاقة محدثة تكون أكثر من التشوق الإنساني إلى الخالق، الذي هو أقرب إلى مخلوقه من حبل الوريد، فانتهى أولئك إلى إفناء الذات الفردية الصوفي في إطار الذات الكلية لله. ومن تلك الصلة الباطنية، صارت الدعوة إلى القول بحلول الله في الإنسان الجدير. وأكد محمد ياسر أنه اشتهر في ذلك أعلام كالحلاج الذي رفض أن يكون مع الله شيء[5].

وعلى هذا كان من المحتوم، في مثل هذه المعتقدات، أن يلقى التصوف معارضة من قبل مدافعي التعليم التقليدي. فقد أصبح الحب الإلهي المتبادل الذي كان يدعو إليه، فضلا عن ادّعائه الإلهام الفردي، موضع انتقاد متزايد الحدّة، وذلك أدى إلى التناقض القائم بين أهل التصوف والتقليديين. ولا شك أن الصوفية من جرّاء تلك المعتقدات وأفكارهم المتعلقة بالدين قد تعرضوا- في حين ما- لشتى المحن والمعاناة. ولقد اختصّ الحلّاج وحده في الأفق الصوفي بأكبر قسط من تلك الفتن. فلم تختصم الأقلام حول رجل في الحياة الروحية كما اختصمت صاخبةً مدوية حول الحلّاج وسيرته وعقيدته. وكلما ذكر اسم الحلاج عامة وعند بعض الصوفية كان المعارض يكفّره ويراه زنديقا خرج عن الدين بأقواله وأفكاره والمدافع يؤيّده ويعتبره وليا صوفيا متفانيا في حب الله والمنصف يؤول تراثه تحت خمار العشق والفناء. وقد يعتمد خصومه على ما قيل على لسانه من أقوال وأشعار بينما سعى أنصاره إلى تأييد أقواله ويقولون: إن لها معاني باطنة لا يفهمها إلا العاشقون. كما أن هناك علماءَ يذهبون إلى تبرئته بالزعم بأن ما قيل على لسانه لا أساس له من الصحة وأنه كلام مدسوس عليه. لمثل هذا يقول أحمد عبد الله الرفاعي: "ومن أباطيلهم الملفقة ما ينسبونه إلى العالم الأصولي الزاهد الشيخ أبي يزيد البسطامي قولهم "الجنة ملعبة الصبيان" "سبحاني وما أعظم شأني"[6].

---

[1] انظر، سيسه، محمد ألف، تلازم الشريعة والتصوف عند الإمام الجنيد الحصيف، المجلة السنغالية للدراسات العربية، جامعة شيخ أنت جوب بدكار، 2024، ص. 104-105.

[2] انظر، السلمي، عبد الرحمان، الطبقات الصوفية، كتاب الشعب، 1998، ص. 103.

[3] انظر، شرف، محمد ياسر، مرجع سابق، ص. 111.

[4] نفس المرجع، ص. 112.

[5] المرجع نفسه.

[6] انظر، الرفاعي، أحمد عبد الله، العقيدة الحقة في الرد على أهل الحلول والوحدة المطلقة وعلى من رمى الطائفة الصوفية بالكفر والزندقة، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، 1983، ص. 21.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ومهما يكن من أمر فإن الحب الإلهي هو سمة الحلاج وطابعه وقوته الروحية التي أوصلته إلى مقام الفناء بالله والبقاء به ليصبح صوفيا ربانيا لا يرى إلا الله في كل شيء، حتى حرق ذلك الحب كل ما هو ترابيّ فيه ويبقى ما هو روحي فيه. ففي تلك الحالة يحلم السالك بمفارقة العادات والطبائع وإخماد كل الصفات البشرية وتلاشيها، بل موتها، فيموت موتة معنوية ويحيا بالله تعالى من حيث لا يشعر[1]. وذلك هو المقام الذي كان الحلاج يمشي إليه حيث حاول أن يخرج من بشرية صفاته إلى بهاء التحلّي بأوصاف القدس الأعلى[2]. ونظرا لتعقيد هذه القضية تفرّق العلماء إلى فريقين: أنصارِه ومعارضيه.

2-1 موقف أنصاره

إن الحلاج عند شعراء ما وراء النهر[3] بطل ملحمة الخلود الكبرى ورائد الحب الإلهي الذي صعد على معارج الشوق والوجد إلى سدرة النور السني، حيث يغشى هناك القلب ما يغشى من أذواق وهبات ومعرفة وتجليات[4]. فإن نفى بعض الصوفية أن يكون الحلاج منهم فقد قبله بعض آخر وعدّوه من مقدميهم، منهم أبو العباس بن عطاء البغدادي، ومحمد بن خفيف الشيرازي، وإبراهيم بن محمد النصراباذي النيسابوري، وصححوا له حاله، ودونوا كلامه، حتى قال ابن خفيف: الحسين بن منصور عالم ربّاني[5]. ومن مؤيديه الشبلي الذي يقول: كنت أنا والحسين بن منصور شيئا واحدا، إلا أنه أظهر وكتمت[6].

استنادا إلى هذا الرأي، يمكن القول: إن الحلاج أفشى ما كان ينبغي له أن يكتمه. كان من الأولى به -إن كان لا بدّ- أن يعيش في باطنه الحقيقة التي كان يتوق إليها، دون الإفصاح عنها. إلا أنه وصل في حال لا يستطيع أن يكتم حبه لأنه يرى أن أطيب الحب وأعذبه ما سار الحديث به. وهو قلق في حبّه، تتقاذفه أمواج الوجد والشوق إلى محيطات ليس لها شطّ. هذا ما قال:

الحب ما دام مكتوما على خطر وغاية الأمن أن تدنو من الحذر
وأطيب الحب ما تمّ الحديث به كالنار لم تؤتِ نفعا وهي في الحجر
من بعد ما حضر السجّان[7] واجتمع الـ. الأعوان واختطّ اسمي صاحب الخبر
أرجو لنفسي براء من محبتكم؟ إذا تبرئت من سمعي ومن بصري[8]

ولعل ذلك كان سبَبَ النهاية المأساوية التي لقيها، والتي كان الحب الإلهي، كما صرّح هو نفسه، السببَ الرئيسي فيها.

حبي لمولاي أضناني وأسقمني وكيف أشكو إلى مولاي مولائي
نفس المحب على الآلام صابرة لعلّ مسقمها يوما يداويها

---

[1] انظر، فلاته، نوال بنت عبد السلام بن إدريس، الجنيد بن محمد وآراؤه العقدية والصوفية، رسالة لنيل درجة الماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، 1429هـ.، ص. 461.

[2] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 166.

[3] يشير مصطلح "شعراء ما وراء النهر" إلى شعراء المنطقة التي كانت تعرف تاريخيا بهذا الاسم، والتي تشمل أجزاء من آسيا الوسطى الحالية.

[4] نفس المرجع، ص. 17.

[5] انظر، الحافظ، ابن كثير، مرجع سابق، م11، ص. 132.

[6] المرجع نفسه.

[7] وفي رواية طه عبد الباقي سرور: من بعد ما حضر الأحباب، انظر، الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص. 169.

[8] انظر، الشيبيّ، كامل مصطفى، شرح ديوان الحلاج، ط2، شبكة كتب الشيعة، بغداد، 2007، ص. 259.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

و بإمعان النظر كرة تلو أخراها إلى أشعار الحلاج كالبيتين اللذين ذكرناهما نرى أن ذلك الحب الإلهي أدنفه أخيرا إلى مقام الفناء الذي أكّد الشرنوبي أنّ الفناء يكون بعد شرب كأس المحبة لمن أراد الله اصطفاءه وقربه[1] وقال: الفناء هو محو النفس وإثبات الأمر كله لله[2]. وعلى هذا لم يَـلُمْ الحلاج في أقواله، بل أشار أن لفظ "الاتحاد" إذا وقع في كلام الصوفية فإنما يريدون به معنى الوجود الكلي الساري في كل شيء وهو وجود الحق عز وجل لا الوجود الجزئي، فليس هناك حلول ولا اتحاد، تعالى الله عن ذلك[3]. وفي نفس السياق يحث السالكين على بذل جهود شاقة لبلوغ تلك المرحلة المرموقة التي سمّاها الوصول، فقال: فيا هذا عليك بشراب القوم فإنه الخالي عن اللوم...فابذل روحك في الوصول لما وصل له القوم وإلا فلا يسام بغير ذلك السوم[4].

يقول طه عبد الباقي سرور: جاء في مطلع كتاب: "مفاتيح الغيوب وتعمير القلوب" ما يلي: "اعلم أن الحلاج عند محققي العلماء، مجمع على ولايته، ومعرفته بربه عزّ وجلّ، ما ينسب من غير هذا كذب وبهتان عليه..."[5]. وفي نفس الصدد لما سئل ابن خفيف عما يعتقد في الحلاج؟ قال: أعتقد بولايته. فقيل له: قد كفّره المشايخ، فقال: "إن كان الذي رأيت في الحبس لم يكن توحيدا فليس في الدنيا توحيد[6]". اعتمادا على هذا، يجوز الظن أن الحلاج تاب في السجن وتخلّى عمّا كان فيه. وإن كان كذلك فإن الله قابل التوب. لكن العلماء اختلفوا في الزنديق إذا أظهر التوبة. فأما ابن تيمية، إذا كان الحلاج وقت قتله تاب في الباطن فإن الله ينفعه بتلك التوبة، وإن كان كاذبا فإنه قتل كافرا[7].

وفي الربط بين عالمي الأدب التقليدي والصوفي يرى الدكتور مصطفى كامل أن ما عدّ شنيعا وفظيعا من معاني الحلاج التي ميل بها إلى الكفر وبُـرّرت بها تهمة الحلول وادّعاء الربوبية لم يكن إلا تعبيرا حسيا طرقه الشعراء التقليديون كما طرقه الحلاج دون أن يدور بخَلَد أحد اتّهام الأولين به أو يبرّئ الأخير من تبعته، وذلك عجيب حقّا[8].

ومن العجب أيضا ما قاله طه سرور: "لم أجد في الدفاع عن الحلاج وتبرئته من تهمة الحلول والاتحاد أبلغ من كلام ابن تيمية"[9]. ولا يختلف اثنان أن ابن تيمية خصم الصوفية الكبير وخاصة الحلاج الذي أثبت أنه كان من أئمة أهل الحال الشيطاني[10]. كتب طه سرور: من هذا المقام الذي جلاه لنا ابن تيمية كانت ألحان الحلاج. ومواجيده التي عبّر فيها صلته بالله، تعبيرات حارة ملتهبة، تضج بوجده، وتنبض بفناء ذاته، وتدندن بالقرب الذي يبيح له أن يتكلم بلسان الحقيقة، فيهتف:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

---

[1] انظر، الشرنوبي، أحمد عرب، مرجع سابق، ص. 78.

[2] نفس المرجع، ص. 77.

[3] نفس المرجع، ص. 76.

[4] نفس المرجع، ص. 78-79.

[5] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 191.

[6] المرجع نفسه.

[7] انظر، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، جامع الرسائل، دار المدني، جدة، لات، ص. 190.

[8] انظر، الشيبيّ، كامل مصطفى، مرجع سابق، ص. 17.

[9] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 183.

[10] انظر، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، جامع الرسائل، مرجع سابق، ص. 194.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ثم يعود إلى لسان بشريته، فيترنم:

أنا سر الحق ما الحق أنا بل أنا حق ففرق بيننا[1].

والمشكلة في قول طه سرور –وإن صحّ– عدم ذكر مرجعه في هذه المسألة.

2–2 موقف خصومه

سبق وأن أشرنا أن الناس مازالوا مختلفين في أمر الحلاج. فأما الفقهاء فحكي عن غير واحد من العلماء والأئمة إجماعهم على قتله، وأنه قتل كافرا، وكان مموها مشعبذا[2].

ومن الذين ألقوا الحلاج نبالا باترة مجدي محمد إبراهيم الذي يرى أنه إذا كان قدم في حال الصحو والوعي والإدراك صورة راقية تحافظ على الشريعة وضرورة الالتزام بباطن الحق، فهو في حال الفناء لم يفعل ذلك، فأقواله الصادرة عنه وإن كان لها ما يبررها من وجهة النظر الذوقية فإنها تتعارض مع قيم الأخلاق وتجافي حقائق الشريعة[3]. وأضاف أن الحلاج كان يعبث بالأخلاق حينما ارتفع بإبليس رمز الشر إلى مقام الفتوة قائلا على لسانه: جحودي لك تقديس، ومن ثم أعتبره كما أعتبر فرعون أستاذا له وصاحبا[4]. وربما يستند الحلاج على فكرة الجبر المحضة في تكفير من يفرق بين الكفر والإيمان، لأن ذلك عنده يردّ إلى المشيئة الإلهية التي تحكم بالشر أو بالخير. يقول محمد إبراهيم إن الحلاج قرر هو نفسه: إن الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، فأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما[5].

ومنهم ابن تيمية الذي يقول: إن أكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء الذي زلّ فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد. فهو يعتقد أن اتحاد المحب بالمحبوب غلط لأن الخالق لا يتحد به شيء أصلا[6]. ولا شك أن الحلاج كان مشهورا بالفناء والاتحاد ولو أوّل أنصاره تصريحاته بأنها ليست دعوى الألوهية، بل تعبيرات عن فناء الذات في الله، يعني أنه لم يبق في الحلاج "أنا" منفصلة عن الحقيقة الإلهية، فصار الحق ناطقا على لسانه، أكّد ابن تيمية أن مما قد يسمى فناء، أي أن يشهد العبد أن لا إله إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والاتحاد[7]. ولهذا أنكر الحلاج ونفرا من الصوفية مثل أبي يزيد وأبي الحسن النوري وأبي بكر الشبلي بخلاف أبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر[8]. وهؤلاء –في رأيه– هم المشايخ الصالحون المستقيمون إذ أنهم متفقون

---

[1] انظر، سرور، طه عبد الباقي، مرجع سابق، ص. 184.

[2] انظر، الحافظ، ابن كثير، مرجع سابق، ص. 133.

[3] انظر، مجدي، محمد إبراهيم، التصوف السني، حال الفناء بين الجنيد والغزالي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 2002، ص. 207.

[4] المرجع نفسه.

[5] نفس المرجع، ص. 208.

[6] انظر، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، م10، ص. 220.

[7] نفس المرجع، ص. 222.

[8] نفس المرجع، ص. 221.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وإنه يجب إفراد القديم عن الحادث، وتمييز الخالق عن المخلوق[1].

والجدير بالذكر أن كلّ من قرأ الصفحات التي خصصها ابن تيمية للحلاج في كتابه: "جامع الرسائل" قد لا يقبل أبدا أن الرجل كان مؤمنا. وها هو السؤال المطروح عليه: هل الحلاج كان صديقا أو زنديقا؟ وهل كان وليا لله متقيا له، أم كان له حال رحماني، أو من أهل السحر والخزعبلات، وهل قتل على الزندقة بمحضر من علماء المسلمين، أو قتل مظلوما؟ فالجملة الأولى التي قالها –بعد الحمدلة– هي: الحلاج قتل على الزندقة التي ثبتت عليه بإقراره وبغير إقراره ثم زاد: ومن قال إنه قتل بغير حق فهو إما منافق ملحد وإما جاهل ضالّ[2]. وقال أيضا: لم يكن الحلاج من أولياء الله المتقين، بل كان له عبادات ورياضات ومجاهدات، بعضها شيطاني، وبعضها نفساني، وبعضها موافق للشريعة من وجه دون وجه، فلبس الحق بالباطل. وذهب إلى بلاد الهند وتعلم أنواعا من السحر[3]. ولكن ما قاله أنواتي يظهر العكس. إنه يقول: الحلاج هو أول من قام بدعوة الهندوس[4] إلى الإسلام[5].

وفي رأي عبد الله حسن زروق يجب أولا التفريق بين الحلول والاتحاد ووحدة الوجود. ففي الحلول ذاتان لكل واحدة منهما ماهيتها التي بها تخالف الأخرى، ولكن تحل ذات في ذات أخرى[6]. وهو يرى أن اللاهوت –على حد تعبير الصوفية– يمثل ذات الله والناسوت ذات الإنسان. وفي حالة الحلول يحل اللاهوت في الناسوت. وفي الاتحاد قد تكون الذاتان أكثر تداخلا وأكثر قربا. وأما وحدة الوجود بيّن زروق أنه لا يكون هنالك أصلا إلا شيء واحد، وهذا الشيء قد يظهر بمظاهر متعددة. قد يظهر في صورة إنسان أو حيوان أو غيرهما من الصور[7].

نظرا لأن هذه المعتقدات خطيرة جدا في إيمان المؤمن تجاه ربه استفتى أبو العباس بن سريج في دم الحلاج ثم أفتى أبو بكر بن داود بجواز قتله[8]. وروى أن الحلاج مر يوما على الجنيد فقال له: "أنا الحق". فقال له الجنيد: أنت بالحق آية خشبة تفسد فتحقق فيه ما قال الجنيد لأنه صلب بعد ذلك[9]. وتجدر الإشارة أن هذه الرواية إن صحّت فإنها تدل على أن الجنيد لم يكن راضيا بما كان عليه الحلاج. وذكر عبد القاهر البغدادي أن أبا العباس بن عطاء ببغداد وأبا عبد الله بن خفيف بفارس وأبا القاسم بنيسابور وفارس الدينوري بناحيته كلهم من جملة خصومه[10] لما حُكي عنه: قيل إنه يقول: من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات

---

[1] نفس المرجع، ص. 223.

[2] انظر، ابن تيمية، جامع الرسائل، تحقيق د. محمد رشاد سالم، دار المدني، جدة، لات، ص. 187.

[3] المرجع نفسه.

[4] الهندوس يعبدون آلهة متعددة، والهندوسية هي الديانات القديمة المنتشرة في الهند.

[5] Cf. Anawati, G et Gardet, Louis, Mystique musulmane, op. cit., p. 37.

[6] انظر، زروق، عبد الله حسن، قضايا التصوف الإسلامي، هيئة الأعمال الفكرية، ط2، 2006، ص. 197.

[7] نفس المرجع، ص. 198.

[8] انظر، البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، مرجع سابق، ص. 247.

[9] المرجع نفسه.

[10] نفس المرجع، ص. 248.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم. ولم يرد حينئذ شيئا إلا كما أراد وكان جميع فعله فعل الله تعالى.

يقول إبراهيم الحلواني: دخلت على الحلاج ووجدته يقول: يا إله الآلهة ويا رب الأرباب...ردّ إليّ نفسي لئلا يفتتن بي عبادك يا هو أنا وأنا هو لا فرق بين آنيتي وهويتك إلا الحدث والقدم ثم قال: يا أبا إسحاق أما ترى: إن ربي ضرب قِدَمه في حدثي حتى استهلك حدثي في قِدَمه فلم يبق لي صفة القديم، ونطقي في تلك الصفة والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدث، ثم إذا نطقت عن القدم ينكرون عليّ ويشهدون بكفري ويسعون إلى قتلي وهم بذلك معذورون وبكل ما يفعلون بي مأجورون[1].

فعلا، لقد شاع في الأوساط الصوفية أن كلام أهل الله قد يكون غير مفهوم، غير أن هذه المقولة الصادرة عن الحلاج تتجاوز حدود إدراك المسلم الذي يريد أن يبقى ضمن إطار القراءة الحرفية للنصوص الشرعية. وبمجرد التأمل الدقيق في عدم الفرق بين "أنانيته" و"هوية الله"، كان بوسعه الامتناع عن الإدلاء بمثل هذه الأقوال، دَرْءا للجدل المتعلق بمسألة الألوهية المطلقة، غير أنه مع ذلك جعل نفسه عرضة لمظاهر التناقض وعدم الاتساق الفكري كما أشار إليه زروق: إن الشيء الذي يختلف عن شيء آخر في صفة الحدوث والقدم لا يبقى معنى للقول بأنه يطابقه[2]. زد على ذلك علمه أن الناس سيقتلونه. أليس ذلك بدليل على خطورة أقواله؟ ومما جعل بعض العلماء يتهمون في دينه حتى كفّروه هذا القول: ألا أبلغ أحبائي بأني قد ركبت البحر وانكسرت السفينة. ففي دين الصليب يكون قولي ولا البطحاء أريد ولا المدينة[3] كما ورد في شعره:

على دين الصليب يكون موتي ولا البطحاء أريد ولا المدينة[4]

وإذا رجعنا إلى الطوسي نجد أنه نقد فكرة الحلول ورأى أن مدّعيه زعموا أن الحق تعالى اصطفى أجساما حلّ فيها بمعنى الربوبية وأزال عنها معاني البشرية. وإن صحّ عنهم ذلك ضلّت الحلولية، لأنهم لم يميزوا بين القدرة التي تدل على قدرة القادر وصنعة الصانع، ولم يميزوا بين الشواهد وما تدل عليه، وبين شاهد الإيمان في القلب وحلول الله في القلب[5].

2-3 الحلاج في ميزان التصوف الشرعي

لنبيّن بادئ ذي بدء أن مقصدنا هنا ليس إصدار حكم على إيمان الحلاج، هل كان مسلما صوفيا مجهولا أم زنديقا ممخرقا؟ وإنما نهدف إلى تقييم آراء أنصاره وخصومه من أجل استخلاص نتيجة في ضوء التعاليم الإسلامية. " الحلاج في ميزان التصوف الشرعيّ" عبارة تحيل إلى تقييم شخصية من زوايا متعددة: عقيدة وتصوفا وفكرا.

إن من مميزات منهج الحلاج الصوفي العشق الإلهي الذي أيّده بتجربته الروحية بلغة رمزية قوية. فهي تجربة فذة عليها طابعه وحده حتى يرى بعض زملائه أنه أفشى سرا لم يكن ليفشيه. فيرى العلماء الرسميون في زمنه وخاصة القضاة والفقهاء أن معتقداته

---

[1] انظر، زروق، عبد الله حسن، ص. 201.

[2] نفس المرجع، ص. 201.

[3] نفس المرجع، ص. 203.

[4] رأى بعض العلماء أن هذا القول يحتاج إلى تأويل. فالمقصود هو أنه يموت على دين الإسلام مصلوبا بينما يرى آخرون أنه يفضل المسيحية على الإسلام. انظر، الشيبي، كامل مصطفى، شرح ديوان الحلاج، مرجع سابق، ص. 29.

[5] انظر، زروق، عبد الله حسن، ص. 202.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لا تتماشى مع العقيدة الصحيحة. وفي الجانب الفكري فإن الحلاج كان متصوفا عميق التصوف، ولكن أسلوبه كان أسلوبا رمزيا مشحونا بالوجد والعاطفة يجعله من رموز التصوف الفاني في المحبة الإلهية ومجددا في التعبير عن العلاقة بين الخالق والمخلوق.

وتجدر الإشارة أن أكثر عبارات الصوفية في التوحيد تدور حول مقام "الفناء" الذي يعتبرونه ذروة معاني محبة الله تعالى، حيث لا يرى ولا يشهد الصوفي المتفاني شيئا غير وجود الله تعالى ويغيب عن كل ما سواه حتى عن نفسه التي بين جنبيه. وهذه المرحلة وما شابهها سببت قتل الحلاج وتكفير بعض نظرائه مثل ابن الفارض وابن سبعين وابن العربي الحاتمي الذي يعتبر أحد أكبر من نظّر وروّج عقيدة "وحدة الوجود" في التصوف[1]. إن صحّ أن الحلاج أوغل في الحبّ الإلهي وفني فيه حتى ظنّ أن اللاهوت يدخل في الناسوت، يمكن القول بأنه كان أحيانا في حالة السكران والغيبة. وكان الأولى به وبغيره أن يقتدي بمنهج سيد الطائفة الصوفية، الإمام الجنيد الحصيف الذي يرى أن الادعاءات الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة وادعاء ارتفاع الحجاب والمشاهدة أضر ما على أهل الديانات، وقد تؤدي بصاحبها إلى الكفر والخروج من الإسلام[2].

الخاتمة

إن الحسين بن منصور الحلاج يمثل نقطة اصطدام بين الشريعة والتصوف، حيث التزم بأوامر الشريعة في ظواهر نصوصه، ولكنه تجاوزها بتجربته الصوفية العميقة التي سعت للانفتاح على الحب الإلهي والفناء في الذات. أدى هذا التجاوز إلى اتهامه بالزندقة وتفريق معاصريه بين مؤيد له ومتهم بكفره، وأخيرا إلى نهايته المأساوية. ولا شك أن الحلاج خطا خطوات كبيرة في الميدان الصوفي، من دعوة الخلق إلى الحق ومن شدة حرصه على العبادة، إلا أنه لم يكتف بذلك، بل سعى إلى امتداد تلك التجربة حتى فتح في التصوف الإسلامي ثغرة لا يرى بعض خصومه سدّها إلا قتله.

فالحلاج كغيره من الصوفية المتحققين اكتشف –تجريبيا– أن في الإنسان بُـعْدا ميتافيزيقيا أو حقيقةً أشار إليها غيره إيماء ورمزا، أو باح بها بعبارات قد لا يفهمها العامّة فصرّح بها الحلاج، بل ربما زاد عليها حتى كان ما كان. فصلب في بغداد سنة 922م. وإذا كان أنصاره يرون أن قتله كان مؤامرة سياسية ودينية إذ أنه خالف الأعراف الفكرية الدينية السائدة وأظهر من الواردات والتجارب الصوفية ما يجب عليه كتمانها، فإن خصومه لا يرون فيه إلا الزندقة والكفر من جراء تصريحاته التي استند عليها القضاة ليحكموا عليه بالإعدام. وبين هذا وذاك أصبح الحلاج رمزا خالدا في وعي التصوف الإسلامي.

وعلى الرغم من ثبوت تجاوز الحلاج للحدود بإطلاقه تصريحات لم تعرف في الساحة الإسلامية ولا في الميدان الصوفي، فإن الطريقة التي قتل بها كانت مروعة. وبما أن العلماء ليسوا متفقين في تقييم حاله، ما الذي كان يمنعهم –إن كان لا بدّ– من الاكتفاء بتنفيذ حكم القتل وتسليم جسمانه إلى أهله؟ وإذا كان الحلاج قد تجاوز الحدود ولقي ما لقي من الفتن والمحن فإنهم أيضا قد تجاوزوا حدود العدالة إلى حدود الانتقام حين مزقوا جسده بصورة شنيعة ورموه في نهر دجلة.

[1] انظر، سيسه، محمد ألف، تلازم الشريعة والتصوف، مرجع سابق، ص. 106.

[2] انظر، الشامي، صالح أحمد، مواعظ الإمام الجنيد، المكتب الإسلامي، بيروت، 2008، ص. 16.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المراجع والمصادر

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، جامع الرسائل، دار المدني، جدة، لات.
- ابن تيمية، أحمد، فتاوى ابن تيمية، ج10، مكتبة المعارف، الرباط–المغرب، لات.
- ابن كثير، الحافظ، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت–لبنان، ج11، 1991.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1982.
- الحاتمي، محيي الدين محمد بن علي، الفتوحات المكية، م1، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- حلمي، الحلول في شعر الصوفي الحسين بن منصور الحلاج، الجامعة الإسلامية الحكومية مولانا مالك إبراهيم مالانج، 2009.
- الرفاعي، أحمد عبد الله، العقيدة الحقة في الرد على أهل الحلول والوحدة المطلقة وعلى من رمى الطائفة الصوفية بالكفر والزندقة، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، 1983.
- زروق، عبد الله حسن، قضايا التصوف الإسلامي، هيئة الأعمال الفكرية، ط2، 2006.
- سرور، طه عبد الباقي، الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1961.
- السّلمي، عبد الرحمان، الطبقات الصوفية، كتاب الشعب، 1998.
- سيسه، محمد ألف، تلازم الشريعة والتصوف عند الإمام الجنيد الحصيف، المجلة السنغالية للدراسات العربية، جامعة شيخ أنت جوب بدكار، 2024.
- الشامي، صالح أحمد، مواعظ الإمام الجنيد، المكتب الإسلامي، بيروت، 2008.
- شرف، محمد ياسر، حركة التصوف الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.
- الشرنوبي، أحمد عرب، تائية السلوك إلى ملك الملوك، المكتبة العصرية، بيروت، 2004م.
- الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان.
- الشكعة، مصطفى، مطالعات إسلامية في العقيدة والفكر، المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، 1977.
- الشيبيّ، كامل مصطفى، شرح ديوان الحلاج، ط2، شبكة كتب الشيعة، بغداد، 2007.
- فلاته، نوال بنت عبد السلام بن إدريس، الجنيد بن محمد وآراؤه العقدية والصوفية، رسالة لنيل درجة الماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، 1429هـ..
- مجدي، محمد إبراهيم، التصوف السني، حال الفناء بين الجنيد والغزالي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
- Anawati, G et Gardet, Louis, *Mystique musulmane: Aspects et Tendances, Expériences et Techniques*, Paris, 1976.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/